عدو الديمقراطيـــة

للأستاذ أحمد أمين

لندع الديمقراطية السياسية ، فلها نظرياتها ولها رجالها ، ولها نزاعها الحار بين دعاتها وأعدائها .

ولنتكلم فى الديمقراطية الاجتماعيـة وأعدائها — فأكبر مظاهر الديمقراطية الاجتماعية الاشتراك فى مرافق الحياة من غير أن تتميز طبقة من طبقة ، فاذا رأيت فى القطار درجة أولى وثانيـة وثالثة فهذا مظهر أرستقراطى ، وإذا رأيت ذلك فى عربات الترام والسيارات العامة والسينما والتمثيل فهذا مظهر من مظاهر الأرستقراطية ، وإذا رأيت أحياء يعنى فيها بالكنس والرش والنور ، وأحياء لايعنى فيها هذه العناية . فهذا مظهر من مظاهر الأرستقراطية ، وإذا رأيت فى المآتم والأفراح كراسى ضخمة مذهبة ، وأخرى عادية ساذجة ، وقوماً يستقبلهم آل الميت وآل العرس بالحفاوة فيجلسونهم فى الصدر ، وآخرين يُستقبلون فى غير حفاوة فيجلسون فى الذيل فهذا أيضاً مظهر من مظاهر الأرستقراطية — وإذا رأيت فى قاعات المحاضرات أماكن حجزت لكبار المدعوّين ، وأخرى حقاً مشاعاً للدهماء . فهذا كذلك مظهر من مظاهر الأرستقراطية — وإذا رأيت الحجاب على الأبواب يفتحونها لمن نزل من سيارة ، ويغلقونها فى وجه ذى الجلباب الأزرق . فذلك نوع من الأرستقراطية . وإذا رأيت مقهى افرنجياً فيه فنجان القهوة بخمسة قروش أو تزيد . ومقهى بلدياً فيه فنجان القهوة بخمسة مليمات أو تنقص ، فهذا مظهر من مظاهر الأرستقراطية ، ولا أسترسل فى ذلك ، فلعلك — ياصاحبى — فهمت مظاهر الأرستقراطية والديمقراطية ، وعلمت أنك فى كل خطوة تخطوها ترى هذه المظاهر فى أشكالها المختلفة ، وألوانها المتعددة .

وهناك دعاة يدعون إلى هذه الديمقراطية الاجتماعية ، كما أن هناك دعاة يدعون إلى الديمقراطية السياسية ، ولهم على ذلك حجج وبراهين .

ولكن لعل أعدى أعداء الديمقراطية وأهم طعنة توجه إلى دعائها ، وأقوى حجة يتسلح بها دعاة الأرستقراطية شىء واحد هو « الوساخة » أو « القذارة » أو ما شئت فسمه . فأكثر تصرفات الأرستقراطيين وأشباههم ، عذرهم فيها طلب النظافة والترفع عن الوساخة .

قد يركب راكبُ الدرجـة الأولى فى القطار أو الترام أو السيارات طلباً للوجاهة وخشية أن يراه الناس بين جمهور الفقراء أونحو ذلك من أعذار كلها سخيفة ، ولكن عذراً واحداً يصح أن يقام له وزن ، وهو وساخة ركاب الدرجة الثالثة والخوف من أذاهم ومن عدواهم .

وقد يتطلب بعض الناس أغلى مطعم وأغلى مقهى حباً فى الظهور ورغبة فى الجاه ، وطلباً لمخالطة العظماء ، ولكن العذر الصحيح أنه ينشد النظافة فى هذا المطعم وهذا المقهى ، ويفر من قذارة المطاعم الرخيصة والمقاهى الرخيصة .

فلو عنى الناس بالنظافة ، وكان من لبس لبس نظيفاً ، ومن فتح مطعماً أو مقهى عنى بنظافته ، وكان الفرق بين لبس الغنى والفقير ، والمطعم الغنى والفقير ليس فرقاً فى الكيف ، فالكل نظيف ، وإنما هو فرق فى النوع والكم ، لانهارت الأرستقراطية الاجتماعية فى كثير من نواحيها ، ولما تقززت أوساط الناس وخيارهم من أن يخالطوا الفقراء فى مآكلهم ومشربهم ومركبهم ، ولسلحوا الديمقراطية بسلاح قوى متين ، ولهذا ترى الأمم التى عنيت بالنظافة والترتيب فى صغيرها وكبيرها ، وفى فقرها وغناها قد أفسحت الطريق أمام محبى المساواة ودعاة الديمقراطية . وتراهم وقد قضوا على اختلاف الدرجات فى السيارات العامة ، وقلّ منهم من يركب الدرجة الأولى فى القطار ، وقلّ من يتطلب أفخم مطعم وأغلى مقهى ، علماً منهم بأن الكل نظيف والكل مريح ، وأن الذين يركبون بجوارهم أو يجلسون بجانبهم لايؤذونهم بمنظرهم ولا برائحتهم ولا

بأى شيء فيهم ، إنما تتميز هذه الطبقات بوضوح وجلاء ، فى مرافق الحياة الاجتماعية حيث تفشو القذارة

إن عقلاء الناس يحتملون الديمقراطية الاجتماعية بل يتعشقونها ، ولكن إذا وصل الأمر الى احتمال عدوى مرض ، أو آلمت أنوفهم رائحة كريهة ، أو آلم عيونهم منظر بغيض ، سهل عليهم بيع الديمقراطية للأرستقراطية .

* * *

لو جرى الأمر على المعقول لكان المسلم من أنظف الناس فى العالم ، فقد ربطت صلواته الخمس بالوضوء ، وفرض عليه الاستحمام فى أوقات ، وكان أول باب من أبواب فقهه باب الطهارة .

وأغتبط إذ أسمع وصف « ابن سعيد » لمسلمى الأندلس فيقول : « إنهم أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك مما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه فيطويه صائماً ، ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها » .

ويؤلمنى أشد الألم ماذكره ابن سعيد نفسه ، وقد زار القاهرة ، وركب منها حماراً الى الفسطاط يقول « فأثار الحمار من الغبار الأسود ما أعمى عيني ، ودنس ثيابى ، وعانيت ما كرهت ، وقلت :

لقيت بمصر أشد البوار ركوب الحمار وكل الغبار

ألم من منظر الفسطاط ، وقال إنه رأى شوارعها غير مستقيمة ، ورأى حول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ، ويغض طرف الظريف ، ورأى البياعين يبيعون فى مسجد عمرو : والناس يأكلون فيه ، ورأى فى زوايا المسجد العنكبوت ، قد عظم نسجه فى السقوف والأركان والحيطان ، ورأى حيطانه مكتوباً عليها بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتابة فقراء العامة الخ . . .

آلمنى هذا الوصف لمصر ، ولو زارها اليوم لما عثر بحماره ، ولأقلته سيارة فخمة من باب زويلة الى الفسطاط فى أرض معبدة ممهدة ، لاتثير غباراً ولا تدنس ثياباً ، ولرأى مسجد عمرو نظيفاً ، لا يأكل فيه آكل ، ولا يكتب على حيطانه كاتب .

ولكن هل كان يعدل عن حكمه القاسى فى مقارنته بين أهل مصر وأهل الأندلس فى النظافة ؟ ذلك ما أشك فيه كل الشك .

لست أدرى لِمَ لم يلتفت الدعاة الى هذا الأمر فى الأمة ، فيدعون ويلحون فى الدعوة الى النظافة ، ويضعون الخطط الدقيقة لها ، فانها خير وسيلة للتقريب بين طبقات الأمة ، فلا يأنف بعدُ مثقف أن يجلس مع غير المثقفين ، ولا متعلم أن يجالس غير المتعلمين ، وفى هذا الاختلاط نشر للثقافة ، ودعوة للآداب العامة ، وغلبة للعنصر المهذب .

يظن الناس أن النظافة غالية ، وأنها مرتبطة بالغنى ، وهذا خطأ بين ، فكم من غنى قذر ، ومن فقير نظيف ، والأمر يتوقف على تعويد النظافة أكثر مما يتوقف على المال ، فليست النظافة أن تلبس أغلى اللباس ، وأن تأكل أفخم الطعام ، وإنما النظافة أن تلبس نظيفاً ولو كان أحقر الثياب ، وأن تأكل نظيفاً ولو كان أحقر الطعام .

هذه بديهيات أولية ، ولكنا مع الأسف مضطرون أن نقولها .

* * *

لعل الأمر فى العلماء والأدباء على نحو ما بينا فى الماديات ، فالذى يفرق بين عالم أرستقراطى وعالم ديمقراطى ، وأديب أرستقراطى وأديب ديمقراطى ، هو نظافة آراء الأولين وأفكارهم وأسلوبهم ، وعكس ذلك فى الآخرين — ولو التزم كل العلماء والأدباء نظافة نظرياتهم ، ونظافة كتاباتهم مهما اختلفت فى النوع والقيمة لانهارت الأرستقراطية العلمية والأدبية أيضاً ، ولكان الكل سواء . ؟

أحمد أمين

تحرير الرسالة

انضم الى تحرير الرسالة الأساتذة :

مصطفى صادق الرافعى ، وعبد العزيز البشرى

وابراهيم عبد القادر المازنى